مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ELWAHAT Journal for Research and Studies
Available online at :https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2
المجلد 17 العدد 1 (2024): 725 – 742 ISSN : 1112 -7163 E-ISSN: 2588-1892

صورة الغول في الحكاية الشعبيّة الجزائريّة

The Image Of The Ghoul In The Algerian Folk Tale

فاتح عيّاد
جامعة سكيكدة(الجزائر) ، كليّة الآداب واللغات، مخبر الدّراسات اللغوية والأدبية
fateh.turk@hotmail.fr

تاريخ الاستلام:19-10-2023 تاريخ القبول:20-05-2024 تاريخ النشر:06-06-2024

ملخص:

تهدف هذه الدّراسة إلى بيان صورة الغول التي تضمّنتها الحكاية الشّعبيّة الجزائريّة، وذلك من خلال عرض أهم السّمات التي تتّصف بها الغيلان، وأبرز الأدوار المنوطة بها، وما لها من تأثير كبير في أحداث الحكاية الشّعبية، وما ينعكس على نفسيّة الطّفل، بالإضافة إلى بيان أسباب استحضار شخصيّة الغول، وبشكل متكرّر، في الحكايات الشّعبية الجزائريّة.

ومن نتائج البحث المتوصّل إليها:

– الغول حاضر في المتخيّل الشّعبي، ولاسيما في الحبكة، وهو مصدر إخافة للطّفل، هذا الأخير الذي يتفاعل مع شخصيّات الحكاية، ويعيش معها في عالمها الخيالي، المليء بالعجائبيّة.

– لشخصيّة الغول تأثير كبير في نفسيّة الطّفل ، وقد تظل راسخة في ذهنه إلى ما بعد السّرد الحكائي.

كلمات دالة: صورة، الغول، الحكاية، الشعب، الجزائر.

المؤلف المرسل: فاتح عيّاد: fateh.turk@hotmail.fr

Abstract :

This Study Aims To Illustrate The Image Of The Ghouls Contained In The Algerian Folk Tale, By Showing The Most Important Features Of The Ghouls, The Most Prominent Roles Entrusted To Them, Their Significant Influence On The Events Of The Folk Tale, And What Is Reflected In The Child's Psychology, As Well As The Reasons For Invoking The Character Of The Ghouls, And Frequently, In The Algerian Folk Tales.

The Results Of The Research Are As Follows:

-Ghoul Is Present In The Popular Imagination, Especially In The Plot, A Source Of Fear For The Child, The Latter Who Interacts With The Characters Of The Story, And Lives With Her In Her Fantasy World, Full Of Miracles.

-The Character Of The Ghoul Has A Great Influence On The Child's Psyche, And May Remain Entrenched In His Mind Until After The Narrative.

Keywords: Image , Ghoul , Tale , People , Algeria.

مقدمة:

يزخر موروثنا الشّعبي الجزائري بألوان أدبيّة كثيرة، ومتنوّعة، ساهمت وبشكل كبير في إضفاء المتعة والبهجة في نفوس الأطفال، مثل الألغاز الشّعبيّة، والأحاجي، والنّوادر، والحكايات الشّعبية، هذه الأخيرة التي بسطت أجنحتها للطّفل وطارت به بعيدًا في عالم المغامرات، عالم يمتزج فيه الواقع بالخيال، ويضمّ كائنات خرافيّة عجيبة انطبعت في ذهن الأطفال وظلّت تحفر في مخيّلتهم لتكون علامات فارقة في عالمهم البريء.

ومن ضمن هذه الشّخصيّات؛ شخصيّة الغول، وهي شخصيّة مشهورة في عالم الحكايات الشّعبية، ولها حضور قوي، دافعه بث القوى الشرّيرة، ومنح طاقة سلبيّة على مدار الأحداث.

وعليه، جاءت الإشكاليّة على النّحو الآتي:

فيمَ تتمثّل شخصيّة الغول؟ وما الدّور الذي تقوم به في الحكاية الشعبيّة الجزائريّة على وجه التّحديد؟ وما هي انعكاسات استحضار الغول في نفسيّة الأطفال؟

تكمن الفرضيّة في كون الحكاية الشّعبيّة الجزائرية قد تضمّنت شخصيّة الغول بشكل كبير، بغية تحقيق غايات معنيّة، تمثّل، أغلبها، في رغبة الأجداد في تنويم الأطفال من جهة، ولتجسيد قيم الشّر والعدوان ضدّ المبادئ والقيم الرّفيعة من جهة أخرى، فكان لهذا انعكاس كبير في نفسيّة الطّفل، ولاسيما فيما يتعلّق بتحفيز قدراته الذّهنية، وشحذ مخيّلته.

أمّا عن أهميّة هذه الدّراسة فتكمن في بيان صورة الغول، والكشف عن أسباب استحضاره في معظم الحكايات الشّعبيّة الجزائريّة، وما لذلك من تأثير على نفسيّة المتلقّي، وللإشارة فقد ارتكزت في دراستي هذه على مدوّنة تضمّ حكايات من الشّرق الجزائري.

وفيما يتعلّق بالمنهج المتّبع، فقد اعتمدنا مقدّمة، وتليها مفاهيم المصطلحات؛ الغول، الحكاية الشّعبيّة، ثمّ انتقلنا إلى لبّ الموضوع، من خلال عرض صورة الغول من حيث كونها حقيقة أو خيال، وما كان لها من حضور في الحكاية الشّعبيّة الجزائريّة، لنختم في الأخير بخاتمة عرضنا فيها أبرز النّتائج المتوصّل إليها، والتّوصيات المقترحة.

أوّلا/ مفاهيم المصطلحات

نعرض في هذا المبحث مفاهيم للمصطلحات الواردة في الكلمات المفتاحيّة للبحث، من باب التّعريف بما سيتم التطرّق إليه، والإحاطة بالموضوع بشكل عام.

1– تعريف الغول:

للفظة "غول" حضور قوي في أذهاننا، ولاسيما ما تعلّق بالذّاكرة الشّعبية الجّمعية، وقبل التعرّف على مكنونها في الحكاية الشّعبية الجزائريّة لابدّ من التطرّق إلى تعريفها اللغوي والاصطلاحي.

أ– الغول لغة:

وردت لفظة "غول" في معاجم لغويّة كثيرة، منها معجم "لسان العرب" لابن منظور، حيث قال: "الغول: ساحرة الجن، والجمع غيلان. وقال أبو الوفاء الأعرابي: الغول: الذّكر من الجن، فسئل عن الأنثى، فقال: هي السّعلاة" (ابن منظور، ص510)

وجاء في تهذيب اللغة: "قال شمر قال ابن شميل: الغول شيطان، يأكل النّاس. وقال غيره: كلّ ما اغتال من جنيّ أو شيطان أو سبُعٍ فهو غول" (الأزهري، ص194)

وجاء في معجم مقاييس اللغة: "الغين والواو واللام: أصل صحيح يدلّ على خَتْلٍ وأخْذٍ من حيث لا يدري. يقال: غَالَ يَغُولُهُ: أخذه من حيث لم يدرِ. قالوا: والغولُ: بُعْدُ المَفَازَةِ، لأنّه يغتال من مرّ به.

والغول: من السّعالي: سُميّت لأنها تغتال" (ابن فارس، ص402)

نلحظ من خلال هذا أنّ هناك تفريق بين الغول والسّعلاة؛ فيقال "أنّ الغول لا يُرى إلاّ ليلا. ويزعم بعضهم أنّه يتلاشى عندما يطلع النّهار، وينطفئ كما ينطفئ السّراج.

وفرّق بعض العلماء بين الغول والسّعلاة من هذه الحيثيّة، أعني من حيث وقت خروجه.. ويقال أنّ السّعلاة: اسم لواحدة من نساء الجن إذا لم تتغوّل –أي تتلوّن– لتفتن السُّفّار" (محمود سلمان، 1989، ص56–58)

ب– الغول اصطلاحًا:

الغول ذكر من الجن، وهناك من يقول بأنّ لفظة "غول" تطلق على الذّكر والأنثى، لقوله صلّى الله عليه وسلّم: "صدقت، وهي كذوب"، وفي حديث آخر: "صدق الخبيث"

وجاء في شعر العرب أنّ "الغول" تطلق على الذّكر والأنثى على حدّ سواء، "قال العنبري:

وحالفتُ الوحوشَ وحالفتني بقرب عهودهن وبالبعـــــادِ

وغـــــولا قفـــــــرة: ذكر وأُنثى كأنّ عليهما قطع البجاد" (محمود سلمان، 1989، ص59)

في حين هناك من فرّق بين الغول والسّعلاة، كقول الشّاعر عبيد بن أيّوب:

"وساخرة منّـــــي، ولو أن عينها رأت ما رأت عيني من الهول جُنَّتِ

أبيـــــت بسعلاة وغـــــــول بقفرةٍ إذا الليـــــل وارى الجـــــنَّ فيـــــه أرَنَّتِ" (المسعودي، 2005، ص122)

ومن أسماء الغول عند العرب: السَّمَرْمَرَة، خيتعور.

والغول كائن بإمكانه التصوّر والتحوّل، فقد "جاء في حديث معاذ تصريح في قدرته على التغيّر والتشكّل: ... فدخلتُ الغرفة، فأغلقتُ الباب عليَّ، فجاءت ظُلمةٌ عظيمةٌ، فغشيتْ الباب ثمّ تصوّرَ في صورة فيلٍ، ثمّ تصوّر في صورة أخرى، فدخل من شِقِّ الباب، فشددتُ إزاري عليهِ..." (محمود سلمان، 1989، ص62)

فنستنتج من خلال هذا أنّ الغيلان قد تتصوّر بصور وتتّخذ أشكالا كثيرة على غير أشكالها التي خُلِقَت عليها، وهذا راجع لكونها من سحرة الجن، لقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إنّ أحدا لا يستطيع أن يتحوّل عن صورته التي خلقه الله عليها، ولكن لهم سحرة كسحرتكم، فإذا رأيتم ذلك فأذّنوا" (محمود سلمان، 1989، ص63)

كما ذكر المسعودي في كتابه "مروج الذّهب ومعادن الجوهر" أنّ الغيلان كانت تتراءى للعرب "في الليالي وأوقات الخلوات، فيتوهّمون أنّها إنسان فيتبعونها، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها، وتتيّههم. وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه، فلم يكونوا يزولون عما كانوا عليه من القَصْد فإذا صيح بها على ما وصفنا شردت عنهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال." (المسعودي، 2005، ص120)

2– مفهوم الحكاية الشّعبية:

"الحكاية الشّعبية" عبارة مركّبة من كلمتين: حكاية، وشعبيّة، وللإحاطة بمفهومها لابدّ من التّعريف بكلا اللّفظتين.

أ– الحكاية:

–لغة:

جاء في لسان العرب "حكي: الحكاية: كقولك حكيت فلانا وحاكيته فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله سواء لم أجاوزه وحكيت عنه الحديث حكاية.

ابن سيده: حكيت إنسانا و أن لي كذا وكذا أي فعلت مثل فعله، والمحاكاة المشابهة تقول: فلان يحكي الشمس حسنا ويحاكيها بمعنى وحكيت عنه الكلام حكاية وحكوت لغة (حكاها أبو عبيدة) وحكيت العقدة أي شددتها" (منظور، ص954)

كما جاء أيضا في المنجد الأبجدي: "حكى :حكاية الخبر : وصفه وعنه الكلام نقله وفلانا الحكي التكلم الكلام (عامية)" (المنجد الأبجدي، 1988، ص377)

نستنتج ممّا سبق أن الحكاية في اللغة كلام أو حكي، وهي من المصدر حكى.

–اصطلاحا:

عرّفها محمد فهمي عبد اللطيف بقوله أنّها: "صورة اجتماعية أكمل وأشمل من الحدوثة... وإنّ موضوعها أوسع نطاقا وأرحب مجالا، فهي أسلوب اجتماعي هدفه الإصلاح

والتقويم والتوجيه والمدافعة في مجال الحياة العّامة، وعلى هذا نجد فيها النقد اللاذع، والسخرية المرة، والفكاهة الضاحكة اللاذعة، كما نجد فيها إثارة العبرة الرادعة" (عبد اللطيف، ص20)

يعرّفها محمد سعيدي بقوله: "الحكاية وعاء للكثير من أحداث التاريخ، وتصوير دقيق لوقائع هذا التاريخ يدل على صدق الإحساس الشعبي العميق بهذه الوقائع" (عبد اللطيف، ص21)

ويمكن القول إّن الحكاية هي "محاولة لاستدراك الأحداث وذلك عن طريق العجائبية والخيال الواسع الذي يؤثر نفسيا واجتماعيا..." (سعيدي، 1998، ص55)

نستخلص ممّا سبق أنّ الحكاية الشعبية هي جنس أدبي متوارث عبر الأجيال، وهي تصوير للواقع أحيانا وأحيانا أخرى تكون مفعمة بالخيال، تتوفّر على عنصر التّشويق والعجائبيّة، وتحوي في مضمونها حِكمًا وعِبَرًا.

ب– الشّعبية:

– لغة:

لا تختلف كلمة الشعبية من حيث الدّلالة اللغويّة في معظم القواميس، فالمعنى هو نفسه ففي المنجد مثلا "الشّعبية : نفوذ يتمتع به شخص هو في الوقت معا معروف ومحبوب من الشعب" (المنجد الأبجدي، 1988، ص598)

وأيضا "شعبي : متعلق بعامة الشّعب، مبسط مفهوم من : populer : adj. populaire قبل العامة شائع عبارة شعبية عاطفي (غناء)، رائج جدا، ناجح، أسعار شعبية :ملائمة للجميع" (سابق، 1985، ص107)

ونلاحظ من خلال هذه التعريفات أنّ الشعبية مشتقة من كلمة الشعب وتعني "الشعب: ج شعوب مص الشعب الجماعة الكبيرة من الناس التي تؤلف أمّة، تخضع لنظام اجتماعي واحد، وتتكلم لسانا واحدا، القبيلة العظيمة الصدع، البعد، البعيد" (وهشام، ص161)

نستنتج أن مصطلح الشعبية جاء من كلمة الشعب أو الشعوب وهي مجموعة من الناس يتكلمون لغة واحدة ويحكمهم نظام معين.

– اصطلاحا:

تتميز كلمة الشعبية بالتماسك والتلاحم، وهي تخص الجماعة لا الفرد، و"الشعبي غير الشعبوي وغير الشعبوبي، فالشعبي هو ما اتصل اتصالا وثيقا بالشعب إمّا في شكله أو مضمونه، أي ممارسة اتصفت بالشعبية تعني أنها من إنتاج الشعب وأنها ملك للشعب" (سعيدي، 1998، ص9)

كثير من الدارسين عرفوا مصطلح الشّعبية "فالشعبية صفة مشتقة من مصطلح الشعب الذي ألهمها المادة والرّوح من حيث الطرح اللغوي والشكلي والدلالي والرمزي، فالشعبية صفة لكل ما يصدر عن الشعب قولا، وفعلا ممارسة سلوكا، وتصورًا للحياة وللأشياء.

ويندرج ضمن هذه الدائرة المفهوماتية لمفهوم الشعبية أيضا كل ما هو موجه للاستهلاك الشعبي سواء كان ماديا أو معنويا" (قبايلي، 2008، ص174)

والشعبية في الاصطلاح تخص الشعب وجاءت من الشعب وللشعب، وهي كل عمل يصدر من الشعب سواء كان ماديا أو معنويا .

وبناء عليه، عرفت الحكاية الشعبية منذ القديم، فهي لا تحتاج إلى التعريف بمفهومها، هكذا يقول عاطف عطية: "لم تكن الحكاية الشعبية بحاجة إلى تأصيل مفهومها، ووضعه في إطار البحث والاستقصاء فهي طبيعتها، مخالفة لكل القواعد والأطر التنظيمية التي عملت وتعمل على وضعها ضمن مناهج وقوانين الدراسة العلمية. وهي مع ذلك حديثة العهد في العالم العربي من حيث تناولها بالاستقصاء والبحث. وفي دراسة الحكاية الشعبية من الصعوبة الشيء الكثير. فهي لا تخضع لزمان بعينه ولا لبيئة محددة، ولا لأحداث دقيقة في تسلسلها إلا في السياق العام. لذلك انصب اهتمام الباحثين على تمييز الحكاية الشعبية عن غيرها من صنوف الأدب الشعبي بما لها من خصائص" (عطية، 2016، ص218)

ويعرف الدكتور زياد محبك الحكاية الشعبية فيقول: "هي أحدوثة يسردها رواية في جماعة من المتلقين، وهو يحفظها مشافهة عن رواية أخرى، ولكن يؤديها بلغته، غير متقيد بألفاظ الحكاية، وإن كان يتقيد بشخصياتها وحوادثها ومجمل بنائها العام. غالبا ما ترويها العجائز لأحفادهم في ليالي الشتاء الطويلة، قبل الذهاب للنوم، وقد يرويها غير العجائز، في مواقف تقتضيها، للعظة والاعتبار وضرب المثل، ولكن الحكاية لا تسرد على الأغلب إلا ليلا في جو يتم التهيؤ له. فالجدة تقعد على خشبة، ويقعد الأولاد أمامها في استعداد للتلقي" (محبك، 2005، ص19)

للحكاية الشعبية لغة تتميز بها عن باقي الأجناس الأدبية "وتلقى الحكاية بلغة خاصة متميزة ليست لغة الحديث العادي، مما يمنحها قدرة على الإيحاء والتأثير، وغالبا ما يكون الإلقاء مصحوبا بتلوين صوتي، يناسب المواقف والشخصيات، وبإشارات من اليدين والعينين والرأس، فيها قدر من التمثيل والتقليد. ويتم التلقي بإصغاء حاد، قد يتخلله الضحك أو الفزع، كما يقتضي الموقف، ولكن في تقدير واحترام، وتصديق واندهاش، من غير مقاطعة" (محبك، 2005، ص19–20)

تعتبر الحكاية الشعبية جنسًا مختلفًا عن غيره من الأجناس الأدبية، تقول نبيلة إبراهيم : "إن المعاجم الألمانية تعرفها بأنها الخبر الذي يتصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية من جيل لآخر. أو هي خلق حر للخيال الشعبي ينسجه حول حوادث مهمة وشخوص ومواقع تاريخية" (إبراهيم، ص91)

أمّا بالنسبة للمعاجم الانجليزية فهي تقول "أنها حكاية يصدقها الشعب بوصف حقيقة، وهي تتطور مع العصور وتتداول شفهيا، كما أنها قد تختص بالحوادث التاريخية الصرف أو الأبطال الذين يصنعون التاريخ، وعلى هذا فإن التعريفين يشتركان في أن الحكاية الشعبية قصة ينسجها الخيال الشعبي حول حدث مهم. وأنّ هذه القصة يستمتع الشعب بروايتها والاستماع إليها إلى درجة أنه يستقبلها جيلا بعد جيل عن طريق الرواية الشفوية" (إبراهيم، ص91–92)

نستخلص أن الحكاية الشعبية هي موروث شعبي جاء من ذاكرة الشعب، يتناقلها الأجيال بالتواتر جيلا عن جيل، وهي من خيال الشعب أو الواقع والأحداث التي عاشها الشعب في ذلك الوقت، والحكاية يتناقلها الشعب عن طريق المشافهة، وقد تكون الحكاية حقيقية من صنع الأبطال أو خيالية من صنع الخيال وللحكاية الشعبية أثر نفسي وبعد اجتماعي.

ثانيًا/ الغول حقيقة أم خيال؟

إنّ الغول شخصيّة قديمة جدًّا، ظهرت عند العرب منذ العصر الجّاهلي، حيث استحضروه في أوابدهم، وقد اختلفت الآراء وتباينت حول هذا الكائن العجيب، فهناك من اعتبر الغول كائنًا خرافيًّا، لا وجود له على أرض الواقع، وإنّما هو من نسيج الخيال، وقد تمّ ابتداعه من المخيّلة بغرض التّخويف، قال الشّاعر:

"لما رأيت بني الزّمـــــان وما بهم خلٌّ وفيٌّ للشّدائـــــــد اصطفى

أيقنـــت أنّ المستحـــيل ثلاثـــــة الغول والعنقـــاء والخل الوفي

وقال آخر:

الغول والخلّ والعنقاء ثالثة أسماء أشياء لم توجد و لم تكن" (محمود سلمان، 1989، ص74–75)

ويذهب أصحاب هذا الموقف إلى كثرة استحضار الغول في الحكاية الشّعبية، على ألسنة الروّاة، فيقولون: "يجوز لنا الاعتقاد بأنّ تصوّر الأوساط الشّعبية لسهولة حركة الغول، وتنقّله السّريع، هو بمثابة طموح الإنسان لتحقيق وسائل اتّصال سريعة، بعد أن ملّ من الانتقال بالوسائل العاديّة" (محمود سلمان، 1989، ص76)

فهذا القول يعبّر عن جعل الغول مجرّد رمز لا أكثر، قائلين: "إنّ الغول بسماته البسيطة الموجودة في الحكاية الشّعبية أمر لا وجود له، بل هو مجرّد رمز للاضطهاد والاستغلال البشع، ومصداقا لذلك ما جاء في المثل الشّعبي (ما غول إلاّ بني آدم)" (محمود سلمان، 1989، ص76)

في حين هناك من يذهب إلى أنّ الغول موجود حقيقة، وممّا يدل على تواجده ما ورد من أحاديث نبويّة، فعن ابن عبّاس قال:

"كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نازلاً على أبي أيّوب الأنصاري في غرفة، وكان طعامه في سلّة من المخدع، فكانت تجيء من الكوّة السَّنُّور حتّى تأخذ الطعّام من السلّة، فشكا ذلك إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: تلك الغول، فإذا جاءت، فقل لها: عزم عليكِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن لا ترجعي. وذكر نحوه"

وقال الطبراني في المعجم الكبير: حدّثنا علي بن عبد العزيز ثنا إبراهيم بن عبد الله الهروي حدّثني عبد الله بن عثمان بن إسحاق بن سعد بن أبي وقّاص قال: سمعتُ من أب أُمِّي (أي جدّه لأمّه) مالك بن حمزة بن أبي أسيد يحدّث عن أبيه عن جدّه: أبي أسيد السّاعدي الخزرجي قال:

وله بئر بالمدينة، يقال لها (بئر بضاعة) ، قد بصق فيها النّبي صلّى الله عليه وسلّم، فهو يُبشِّر بها، ويتيمّن بها، قال: فلمّا قطع أبو أسيد تمر حائطه، جعلها في غرفة له، فكانت الغول تخالفه إلى مشربته، فتسرق ثمره، وتفسد عليه.

فشكا ذلك إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم، فقال:

تلك الغول يا أبا أسيد، فاستمع لها، فإذا سمعت اقتحامها، -يعني وجبتها- فقل: بسم الله، أجيبي رسول الله صلّى الله عليه وسلم..." إلى آخر الحديث.

وذكر الجاحظ في كتابه الحيوان: أنّ جماعة من العرب كانوا إذا صاروا في تَيْهٍ من الأرض، وتوسّطوا بلاد الوحوش، خافوا عبث الجنان والسّعالي والغيلان والشياطين، فيقول أحدهم، فيرفع صوته: إنّا عائذون بسيّد هذا الوادي.. (الجاحظ، ص462)

وقال المسعودي في مروج الذّهب: "وقد ذكر جماعة من الصّحابة ذلك، منهم عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه- أنّه شاهد ذلك في بعض أسفاره إلى الشّام، وأنّ الغول، كانت تتغوّل له، وأنّه ضربها بسيفه، وذلك قبل ظهور الإسلام، وهذا مشهور عندهم في أخبارهم" (المسعودي، 2005، ص121)

ثالثًا/ شخصيّة الغول في الحكاية الشّعبيّة الجزائريّة:

يشتمل المبحث على تقديم يتناول النقاط التي يتم عرضها ضمنه وفق التقسيم إلى مطالب.

1- شخصيّة الغول:

لقد أخذت شخصيّة الغول حيّزًا كبيرا في القصص والحكايات الشّعبية الجزائريّة، وهو يمثّل عنصر الشّر، لذا فهو يتميّز بطباع حادّة، وهو أشبه بالحيوان في غريزته، إذ يبدو، في الغالب، متعطّشا لالتهام البشر، وسفك دمائهم، ومع هذا قد يبدو في بعض الحكايات ودودًا، وصديقًا للإنسان، كما هو الحال في حكاية "بشكركر والغول"، تقول الحكاية: "كان هناك صديقان؛ أحدهما اسمه بشكركر، والثاني الغول.." (عياد، 2023، ص9) إلاّ أنّ هذا الود سرعان ما يزول، فيعود الغول إلى طبيعته وتَحْتَكِمه الغريزة لأي سبب.

وقد تجمع الغول ببني آدم علاقة قرابة؛ تزاوج أو مصاهرة، وقد ورد هذا في كتاب "أخبار الزّمان وعجائب البلدان"؛ "وحكى أنّ صنفًا من السّعالي يتصوّرون في صور النّساء الحِسان ويتزوجن برجال الإنس، كما حكى عن رجل يقال سعد بن جبير، أنّه تزوّج امرأة منهنّ وهو لا يعلم ماهي: فأقامت عنده وولدت عنده أولادًا، وكانت معه ليلة على سطح يشرف على الجبّانة، إذا بصوت في أقصى الجبّانة نساء يتألّمن فطربت وقالت لبعلها: أما ترى نيران السّعالى شأنك وبنيك استوص بهم خيرا، فطارت فلم تعد إليه.." (المسعودي أ.، 2013، ص26)

ومن أمثلة قرابة الغول بالإنسان ما ورد في حكاية "الوجلة بنت الغولة"، تقول الحكاية: "إلاّ أنّ الوجلة لم تحظَ بإقبال العرسان، ولا زيارة الخلاّن، ذلك أنّها ابنة لغولة شرسة، تمنع كل قريب أو بعيد من الاقتراب من ابنتها" (عياد، 2023، ص29)، فبالرّغم من أنّ الغولة أمّ للوجلة، إلاّ أنّ طباع الغيلان فيها بارزة، فكانت مصدر قلق حتّى لابنتها الآدميّة.

وقد تكون العلاقة بين الغول والإنسان علاقة تبنّي، كما جاء في حكاية "مقيدش بوالهموم" حيث تبنّت الغولة مقيدش وعملت على رعايته، تقول الحكاية: "كان مقيدش قصير القامة، إذ لا تتعدّى قامته حجم الإصبع، ورغم حجمه الصّغير إلاّ أنّه ذكي فطن، وكان من طبعه إثارة الشّغب والمشاكل لمربيته الغولة" (عياد، 2023، ص17)

إلاّ أنّ هذه العلاقة، أيضا، لم تدم، والسّبب يعود إلى مقيدش المشاغب، ليكون عقاب الغولة الرّغبة في التهامه فتغيب عاطفة الأمومة فيها باعتبارها من الغيلان، تقول الحكاية: "رفعت الغولة مقيدش إلى فمها الكبير، فصاح: مهلك.. مهلك... عار عليك أن تلتهميني لوحدك؟" (عياد، 2023، ص18)

2– خصائصه:

قد زخرت حكاياتنا الشعبيّة الجزائريّة بحضور شخصيّة الغول، والتي اتّخذت عدّة أشكال، لكنّها مشتركة في جملة من الصّفات أو الخصائص، نذكرها كالآتي:

أ– التحوّل والتلوّن:

كما أشرنا في السّابق أنّ للغول خاصيّة التحوّل والتشكّل في صور كثيرة، ويكون هذا التشكّل بحسب الموقف أو الغاية التي يريدها لقضاء حاجته، ففي الحكاية الشّعبيّة "سكراية" تشكّل الغيلان في صورة آدميين تجّار، وغايتهم في ذلك خداع البطل والفتك به وبعائلته، تقول الحكاية: "بعد مرور أشهر زار القرية مجموعة من التجّار، وكانوا يبيعون العطور وأنواع الزّيوت، فاستضافهم عمر في مترله ورحّب بهم، لأنّهم غرباء وجاؤوا من بلاد بعيدة ولا مكان لهم يبيتون فيه." (عياد، 2023، ص117) إلاّ أنّ الغيلان سرعان ما يعودون إلى حالتهم الأصلية إن شعروا بالأمان، وهذا ما يتسبّب عادة في كشف حيلتهم، "ما إن أطلّت ياقوتة على الباب حتّى تفاجأت وكاد يغمى عليها ممّا رأته، فهؤلاء التجّار أصبحوا في هيئة مرعبة، لهم شعر كثيف يغطّي وجوههم، وأنيابهم طويلة... تمالكت نفسها وعادت أدراجها." (عياد، 2023، ص118)، وكذلك في: "وافق الغيلان المتنكّرين في هيئة تجّار، واتّجه جميعهم نحو الغرفة التي

أشار إليها عمر، وارتموا على الفراش الوثير فسقطوا في الحفرة العميقة. عادوا إلى هيئتهم الأولى غيلانًا متوحّشة" (عياد، 2023، ص120)

عادة ما يتصوّر الغيلان في صور بشر طيبين ودودين، وذلك بغية كسب ثقة الضحيّة، والإيقاع به بسهولة، وهذا ما حدث في حكاية "بحلوتة والأسد"، حيث ظهرت الغولة في صورة امرأة كبيرة، وادّعت بأنّها خالة بحلوتة، وهي ترغب في اصطحابها وإخوتها إلى منزلها، وبإلحاح شديد تمكّنت من إقناعها، تقول الحكاية: " وفي إحدى الأمسيات بينما كانت بحلوتة وإخوتها يستقون من المنبع شاهدت امرأة غريبة تتقدّم نحوها وهي ملتحفة لحافًا أسودًا. تراجعت بحلوتة وإخوتها إلى الخلف فضحكت المرأة وقالت مستنكرة: ويحك ووَيح دمك البارد... أما عرفتني؟ بحلوتة: كلّا، فمن تكونين؟ الغريبة: أنا خالتك، وقد قدِمْتُ خصّيصًا لاصطحابك أنت وإخوانك، فقد اشتقت إليكم كثيرًا." (عياد، 2023، ص22)

وفي نهاية المطاف انكشف أمر الغولة فعادت إلى صورتها الأصليّة المرعبة، لأنّ الغضب استبدّ بها بعد فشلها الذّريع في القضاء على ضحاياها، "فأدركت حينها أنّها وقعت في فخ بحلوتة... زمجرت وبرزت أنيابها الحادّة، وازداد شعرها انتكاشًا" (عياد، 2023، ص25)

وفي حكاية "جحا ووحا" استطاعت الغولة أن تخدع مخنان وتوهمه بأنّها خالته، رغم معارضة زوجته مدروجة، التي كانت تشكّ في أمرها، تقول الحكاية: "في أحد الأيّام، وبينما كان مخنان في الغابة يحتطب اقتربت منه امرأة طاعنة في السّن، تعجّب من وجودها في هذه الغابة الموحشة، وبادرها بالسّؤال: من أنت يا سيدتي؟ وماذا تفعلين في هذه الغابة؟ ابتسمت العجوز وقالت: ألم تعرفني يا بني؟ مخنان: كلاّ، العجوز: أنا خالتك" (عياد، 2023، ص66)

ظلّت الغولة في صورة المرأة الوديعة، لكن بغياب مخنان وزوجته كانت تعود إلى حالتها الأولى، ولاسيما إذا حلّت الفرصة المواتية لذلك، تقول الحكاية: "أمّا الخالة فبمجرّد انفرادها بالصّغير في البيت انقضّت عليه وغرزت أنيابها في جسمه، إلاّ أنّ الأنياب انغرزت في جذع الشّجرة، فراحت تصيح وتتألّم إلى أن جاء مخنان." (عياد، 2023، ص69)

نستخلص من خلال هذا أنّ الغيلان يتلوّنون في الوقت الذي يناسبهم، ويتماهون في شخصيّتهم الجديدة لإيهام الضحيّة واستدراجه، فإن وقع في فخّهم عادوا إلى صورتهم الأولى، ذلك أنّ التلوّن أو التشكّل، ما هو إلا وسيلة تمويه وخداع.

ب–المظهر المخيف:

للغول شكل مخيف، وله خلقة غريبة مركّبة، تبعث على الرّعب والذّعر في نفوس النّاس، يصفه السّندباد بقوله: "شخص عظيم الخلقة في صفة إنسان، وهو أسود اللون طويل القامة كأنّه نخلة عظيمة، وله عينان كأنّهما شعلتان من نار وله أنياب مثل أنياب الخنازير، وله فم عظيم مثل البئر، وله مشافر مثل مشافر الجّمال مرخيّة على صدره، وله أذنان مثل الحرامين مرخيّتان على أكتافه، وأظفار يديه مثل مخالب السّبع" (خورشيد، 1991، ص142)

كما قيل في وصف شكله: "غول: الشّخص الذي يجد سعادته فيما هو مثير للاشمئزاز أو مرضى أو كريه –سارق قبور– روح شرّيرة أو شيطان في الفولكلور الإسلامي قيل إنّه يسرق القبور ويلتهم الجثث" (توفيق، ص8)

وقد ورد ذكر المظهر المرعب للغيلان في كثير من الحكايات الشّعبيّة الجزائريّة، فقيل عنهم: "لهم شعر كثيف يغطّي وجوههم، وأنيابهم طويلة" (عياد، 2023، ص118)

ولم تكن صورة الغول فحسب هي المخيفة، بل حتّى مساكنهم وأماكن تواجدهم، فنجد وصفا لمسكن الغولة في حكاية "بحلوتة والأسد" حيث تقول: "كان منظر البيت غريبًا، تحيط به أشجار متشابكة الأغصان، ولون حيطانه أسود فاحم، تنبعث من نوافذه الصّغيرة روائح كريهة.

تقدّمت الغريبة وخلفها بحلوتة وإخوانها الصّغار، وفتحت باب المترل بمفتاح غريب الشّكل، هو أشبه بعضم حيوان." (عياد، 2023، ص23)

فمنظر هذا السّكن يثير الرّعب في النّفوس، ولاسيما أنّ المنظر بشكل عام يخدش معظم الحواس؛ حاسّة البصر، وحاسّة الشّم..

كما ورد وصف المكان الذي استوطنته الغولة رفقة ابنتها في حكاية "الولجة بنت الغولة"، فقيل عنه:

"بعد عناء ومشقّة وصل الأمير رفقة الطّائر الصّغير إلى مكان مظلم، فالأشجار فيه متشابكة الأغصان، والحبال ذات الأشواك الحادّة تلفّ مترل الغولة من كلّ جهة" (عياد، 2023، ص32)

نلاحظ في هذا الوصف أنّ الطّبيعة تتماهى وشخصيّة الغولة في لوحتها العاتمة، ومنظرها المثير للهلع والفزع، وكأنّ بالطّبيعة هنا تحذّر الجميع من الاقتراب إلى مسكن الغولة، وتنبّههم إلى خطورة الموقف.

جـــ–السّطو والغدر:

يتمحور دور الغول في الحكاية الشّعبيّة الجزائريّة حول السّطو والبطش، فهو حاضر في كل حكاية ليثير الرّعب، ويسطو على البطل وغيره، ففي حكاية "الكلب الأسود" يُذكَر أنّها "الغولة جاءت من مكان بعيد واستوطنت بالقرب من القريّة، لتظفر بما فيها من غنم وماعز، فكانت تقترب من الكلب وتعاركه من حين إلى آخر حتّى يتعب ويترك لها القطيع.. لكنّ الكلب شجاع ويصعب استسلامه. عضّته من نواحٍ كثيرة في جسمه، وقذفته بالحجارة، لكنّه لايزال صامدًا في وجهها." (عياد، 2023، ص59)

فالغولة في هذه الحكاية تشكّل عنصر تهديد لأمن القرية، وقد ضلّت تسعى سعيها حتّى تمكّنت من الكلب الحارس، واقتحمت مترل الأهالي، باعثة فيهم الهلع.

ومن الصّور المريعة لبطش الغيلان ما تمّ ذكره في حكاية "سكراية" حيث "التلهم الغيلان أحشاء نعمان وتركوا جسمه فارغًا كما يفعلون بكل شخص سوّلت له نفسه الاقتراب من ممتلكاتهم، ثمّ رموا جثّته إلى جانب بقية الجثث ليكون عبرة لمن يعتبِر." (عياد، 2023، ص116)

قد يتصالح أبطال الحكاية الشّعبية مع الغول، ويمدّوا إليه يد العون، أو يتودّدون إليه، إلاّ أنّ غريزته في التهام البشر تظلّ حاضرة، فيغدر بهم حال واتته الفرصة، ففي حكاية "الولجة بنت الغولة" يقوم السّلطان بدعوة الغولة إلى عرس ابنتها، ويستضيفها، لتمكث بين الأهالي معزّزة مكرّمة، إلاّ أنّها لم تقاوم غريزتها وفتكت بأحد سكّان القرية، تقول الحكاية: "فرح الأهل كثيرا بالغولة وقدّموا لها هدايا كثيرة، كما ذبحوا لها عجولا كثيرة وطهوها لها، فأكلت حتّى أصابها الشّبع ونامت على سرير وثير. عند شروق الشّمس أصاب الأهل ذعرًا وفزعًا كبيرين، فقد وجدوا آثارًا للدّماء وبعض الأعضاء لشيخ عجوز، وقد وجّهت كل الاتّهامات إلى الغولة" (عياد، 2023، ص37).

وفي حكاية "جحا ووحا" كان مصير مخنان القتل على يد الغولة التي قام بمساعدتها، وخلّصها من الشَّرَك الذي وقعت فيه، تقول الحكاية: "صدّق مخنان الغولة خاصّة وأنّه تذكّر تذمّر مدروجة الدّائم من خالته، فراح ينتزع الجذع عن أنياب الغولة، وعند انتهائه هاجمته بسرعة، وسألته قائلة: من أيّ عضو أبدأ النّهش؟" (عياد، 2023، ص69)، كان منظر الجُّرم جدّ قاسٍ على السّامعين، فقد اقتلعت الغولة معظم أطراف مخنان، وتنهشها دون رحمة، ضاربة موقفه الإنساني معها عرض الحائط، تقول الحكاية: "وهكذا ظلّت الغولة تسأل مخنان وتنهش

لحمه إلى أن لقي حتفه، بعدها انتفضت من مكانها وراحت تتعقّب خطى مدروجة عن طريق شمّ رائحتها." (عياد، 2023، ص70)

ممّا سبق يمكننا القول بأنّ الغول أو السّعلوة كائن وحشي، لا يمكن أن يؤتمن جانبه، فوظيفته في معظم الحكايات الشّعبيّة البطش والغدر.

د– الغباء وقلّة الحيلة:

إنّ الغول وبضخامة جسمه، وجسارته، إلاّ أنّه في معظم الحكايات الشّعبية مخلوق غبي وساذج، وهذا ما يتسبّب في الإطاحة به، فالبطل ذكي، ويستعمل عقله في مواجهته، أي أنّ الفرق بين الاثنين لا يكمن في الشّكل وحسب، بل في نسبة الذّكاء والقدرة على التحكّم بما يقتضيه الموقف أو السياق.

ففي حكاية "بشكركر والغول"؛ "كان بشكركر قصير القامة، ضعيف البنية، يتميّز بالحيلة والذّكاء الخارق، في حين كان الغول عكسه تمامًا، طويل القامة، قوي البنية، يفتقر إلى الحيلة والذّكاء" (عياد، 2023، ص9)، لذا فبطل الحكاية بشكركر لا يخاف الغول، ولا يهابه، لأنّه يدرك تمامًا مستواه الذّهني، لذا فهو يعتمد على ذكائه ورجاحة عقله ليثير الرّعب في صديقه الغول، هذا الأخير الذي بات يحسب ألف حساب لصديقه القزم، تقول الحكاية: "غضب بشكركر من سخرية الغول وفي لحظة اهتدى إلى إجابة ذكيّة فقال بكلّ ثقة: ويحك أيّها الأبله، بينما كنّا نمشي شاهدت نحلة تطير في الهواء فطرت لألحق بها وأحصل على هذا العسل الذي تراه أمامك." (عياد، 2023، ص10)

كذلك الأمر في حكاية "مقيدش بوالهموم" فبفضل ذكائه استطاع خداع الغولة في أكثر من موقف، وتمكّن من النّجاة، تقول الحكاية: "رحّبت الغولة على الفور بفكرة مقيدش، وحبسته في غرفة الطعام، وأحضرت كبشًا سمينًا، وشوته على النّار حتّى تقاطر الشّحم منه، وقدّمته إلى مقيدش الذي سُرَّ كثيرًا بهذه الوليمة التي لم تكن تخطر على البال." (عياد، 2023، ص18)

نستنتج من خلال هذا، أنّ الغول كائن ضخم متوحّش، إلاّ أنّه بليد، ولا يحسن الخلاص من المواقف الصّعبة التي يوضع فيها، لتكون العبرة المستقاة من الحكاية الشّعبية الجزائريّة أنّ القوّة تكمن في العقل الرّاجح.

3– الهدف من استحضار صورة الغول:

لطالما استحضر الروّاة صورة الغول في الحكايات الشّعبيّة الجزائريّة، و لم يكن ذلك عبثًا، بل لغايات معيّنة، فمن خلال الصّورة المرعبة للغول استطاع الحاكي أن يبثّ الرّعب والهلع في نفوس المتلقين، ولاسيما فئة الأطفال منهم، وذلك بغية ترغيبهم في النّوم المبكّر، أو الالتزام بالهدوء وعدم إثارة الشّغب، وإلا سيلتهمهم الغول.

هذا بالإضافة إلى عقد مفاضلة بين قوى الخير وقوى الشّر، فيبدو الشرّ ممثّلا في هيئة مخلوق ضخم، ذا شكل مخيف، ويقابله الخير ممثّلا في البطل صاحب الجسم الصّغير أو الضّعيف لينتصر في نهاية الحكاية بفضل الفطنة والذّكاء.

5– النّهاية المعهودة للغول:

غالبًا ما يكون الضحيّة أحد أقرباء البطل أو أصدقائه، لينتقم البطل في الأخير ويتخلّص من الغول، فيكفّ أذاه عن الخلق، فلا تكون نهاية الغول موتة طبيعيّة، بل موتة قاسية بقساوة الجّرم الذي ارتكبه، وهذا ما شهدناه في معظم الحكايات الشّعبيّة الجزائريّة، ففي حكاية "بحلوتة والأسد" انتهى أمر الغولة بنفثة سحريّة من الأسد، لتتحوّل إلى رماد، تقول الحكاية: " ما إن اقتربت الغولة من الأسد حتّى نفث فيها نفثةً حوّلتها إلى رماد، وهكذا تخلّصت بحلوتة وإخوتها من الغولة الشرّيرة." (عياد، 2023، ص25)

ونهاية الغولة في حكاية "مقيدش بوالهموم" كانت بانصهار رأس الغولة في الباب الحديدي السّاخن، تقول الحكاية: " فردّ عليها مقيدش، بعد أن أوقد النار بالداخل قرب الباب: إن أردتِ فتح الباب الحديدي فما عليك إلاّ أن تتراجعي إلى الخلف ثمّ تهجمي هجمة قويّة و تنطحي الباب برأسك.

طبّقت الغولة نصيحة مقيدش وركضت نحو الباب ونطحته برأسها، فالتصق في الحديد السّاخن، ظلّت تصرخ وتصرخ إلى أن ماتت، فخرج حينها مقيدش وهو مزهوٌّ بلذّة الانتصار." (عياد، 2023، ص21)

كما كان مصرع الغولة على يد صهرها، وبطلب من ابنتها في حكاية "الولجة بنت الغولة"، تقول الحكاية: "أصرّت الولجة على طلبها، وهدّدت بأن تفعل هي ذلك إن لم يلبِّ رغبتها. قتل عليّ بن السّلطان الغولة فذرفت الولجة دمعتين لؤلؤيّتين.." (عياد، 2023، ص38)

وفي حكاية "سكارية" وقع الغيلان في الشَّرَك الذي نسجته لهم ياقوتة بعد اكتشافها لأمرهم، حيث "ارتموا على الفراش الوثير فسقطوا في الحفرة العميقة" (عياد، 2023، ص120)

إنّ مصرع الغول في الحكاية الشّعبية ما هو إلاّ رمز لنهاية الشّر، وانتصار الخير، لذا فإن هذه النّهاية شبه حتميّة في كل حكاية، وبها ترتاح نفس المتلقّي، ويهدأ روعها.

الخاتمة:

من خلال دراستنا هذه، توصّلنا إلى النّتائج الآتية:

– يُعتبَر الغول في الحكاية الشّعبية الجزائريّة كائنًا خرافيًّا، فهو من تأليف المخيّلة الشّعبية، في حين هو حقيقة تمّ ذكرها في الأثر، إذ يعتبر نوعًا من أنواع الجن التي لها قدرة على التلوّن والتّشكل.

– كثيرًا ما يتم توظيف الغول في الحكاية الشّعبية الجزائريّة، وهو يمثّل قوى الشّر.

– للغيلان خصائص مشتركة، أبرزها: التصوّر بأشكال مختلفة، المظهر المخيف، السّطو والغدر، البلادة والغباء.

– يتم استحضار صورة الغول في الحكاية الشّعبية الجزائريّة بغية تنويم الأطفال وإرهابهم في حالة شغبهم.

– غالبًا ما تكون نهاية الغول بموته مقتولا، وبمصرعه تنتهي أحداث الحكاية الشّعبية الجزائريّة.

أمّا عن التّوصيات المقترحة، فندعو إلى حفظ الحكايات الشّعبيّة الجزائريّة، وتداولها باستمرار، حتّى نحفظ هذا الإرث الشّعبي، ونحميه من الزّوال.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أبو الحسن المسعودي، أخبار الزّمان وعجائب البلدان، تحقيق: خالد علي نبهان، ط1، مكتبة النافذة، الجيزة، 2013.

2- أبو الحسن المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، مراجعة: كمال حسن مرعي، ط1، المكتبة العصرية، صيدا–بيروت، 2005.

3- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج4، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

4- أبو عثمان بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج6، تحقيق فوزي خليل عطوي، دار صعب، بيروت.

5- أحمد خالد توفيق، أسطورة نادي الغيلان، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، مصر.

6- أحمد زياد محبك، من التراث الشعبي: دراسة تحليلية للحكاية الشعبية، ط1، دار المعرفة، بيروت– لبنان، 2005.

7- جروان سابق ، معجم اللغات، ط1، دار السابق للنشر، بيروت– لبنان، 1985.

8- عاطف عطية، في الثقافة الشعبية العربية: بنى السرد الحكائي في الأدب الشعبي، ط1، جروس برس ناشرون، طرابلس– لبنان، 2016.

9- عمر قبايلي ، مدخل للثقافة الشعبية العربية ، مجلة الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، العدد7، ورقلة _الجزائر، ماي 2008.

10- فاتح عيّاد، حكت لي أمّي: حكايات من التراث الشعبي الجزائري، ط1، دار جودة للنشر والتوزيع، 2023.

11- فاروق خورشيد، عالم الأدب الشّعبي العجيب، دار الشّروق، بيروت، 1991.

12- مشهور حسن محمود سلمان، الغول بين الحديث النبوي والموروث الشّعبي، ط1، دار ابن القيم، المملكة العربية السعودية، 1989.

13- محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، ج8، الدّار المصرية للتأليف.

14- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج11، دار صادر.

15- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار المعارف، ط1، كورنيش النيل، القاهرة.

16- محمد سعيدي، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون–الجزائر، 1998.

17- محمد فهمي عبد اللطيف، الحدوثة والحكاية في التراث الشعبي، دار المعارف، كورنيش النيل_القاهرة.

18- المنجد الأبجدي، ط6 ، دار المشرق، بيروت_ لبنان، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.

19- مرشد الطلاب، دار الأنيس، مجموعة رشيد وهشام، وهران– الجزائر.

20- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشّعبي، مطبعة دار العالم العربي، القاهرة.